دراسات في الآداب الاجنبية

انطون تشيخوف

بقلم جلال فاروق الشريف

« لقد مضى علي خمسة وعشرون عاماً وانا اقرأ ما يكتب من نقد لاقاصيصي ، ولست اذكر ان ملاحظة واحدة قيمة وجهت اليها ، ولم اسمع نصيحة ثمينة . لقد أثر في نفسي احد النقاد الادبيين مرة واحدة : ذلك عندما كتب قائلاً : « اني سأموت سكران عند حافة احد الجدران . » (١) على هذا النحو عبّر انطون تشيخوف عن رأيه في النقد الادبي ومايكتب عنه ، لصديقه مكسيم غوركي . ولقد كان غوركي يؤمن بهذا ، لذلك كتب اليه يقول : « ان طبع مجموعة كاملة لاقاصيصك فكرة مُثمرة . انها ستحمل النقد الادبي على التفاهم مع الجمهور وعلى تحسين حكمه عليك . »(٢) . كما قال له في رسالة اخرى : « لقد فرغت توّاً من قراءة المقال الذي خصصه لك « سولوفييف » في « الحياة » . لست براض عنه رغم انه يفند رأي « ميخايلوفسكي » . ان حديثه عن « العم ڤانيا » ليس بالقول السوء ، غير انه ليس ابداً ما يجب ان يقال . وهو على النقيض من ذلك يتورط في الخطأ عندما يتكلم عن حظك . انه على العموم سطحي . » (٣) . وفي ثالثة يقول : « .. متى سنرى نقداً حقيقياً يظهر الى حيز الوجود اخيراً ؟ ان مقال « سولوفييف » يدعم في نفسي تلك الرغبة في ان اكتب شيئاً عنك ، ويقويها . وليس مبعث ذلك اني قادر على تأسيس « النقد الحقيقي » وانما لاني استطيع ان اتعمق في بحث الامر اكثر منه . » (٤).

وغوركي ، رغم تواضعه ، قادر على تأسيس النقد الادبي الحقيقي وخاصة بالنسبة لتشيخوف ، لا لانه صديقه الذي خالطه وعرفه حق المعرفة ، وانما لانه فنان مثله . فكهف عبقرية فنان ، لا يفتح إلا بكلمة من فنان ، وسر « الكبار » لا يمكن ان يلم به الا « الكبار » . اما الآخرون فليس لهم عندما يلامسون الفن الا ان يعجبوا ويصفقوا ، وعندما يرون الكهف مفتوحاً إلا ان يدخلوا ويدهشوا ويفتتنوا .

ولقد اصبح تراث تشيخوف اليوم ، بعد انقضاء خمسين عاماً على وفاته ، ملكاً للعالم باسره بعد ان نقل الى جميع اللغات . والقارئ العربي يشعر بحاجة الى كلمة اخرى عنه بعد ان ذاع منقولاً الى العربية منذ سنوات طويلة ، رغم انه قيلت عنه بالعربية كلمات . غير ان نصيبها بعد وفاة تشيخوف ليس افضل من نصيب قائليها في حياته . ولقد قال الكبار كلمتهم في تشيخوف منذ عهد بعيد . وما احوج القارئ العربي والكاتب والناقد ، الى ان يظل تلميذ آرائهم مدة طويلة قبل ان يتقدم ليمد يده الى قدس اقداس فنان .

★

يقول الكاتب الروسي « ليون شيستوف L.Chestov » في دراسة له عن تشيخوف : « ليست لدينا ترجمة كاملة ومفصلة لحياة تشيخوف ، ومن المحتمل ان لا نظفر بها ابداً ، بسبب انه لا توجد بصورة عامة ترجمات من هذا النوع ... قد يتفق ان نعلم بين يوم وآخر اسم الخياط الذي كان يصنع لتشيخوف ثيابه ، غير اننا لن نعلم ابداً ماذا كان يجري في داخل تشيخوف خلال تلك الفترة الممتدة بين قصة « السهب » ومسرحية « ايفانوف » (١) . ومع ذلك فان كتاب «حياة تشيخوف» الذي وضعته بالفرنسية الكاتبة الروسية الاصل « ايرين نيميروفسكي » يصح ان يعتبر من افضل ما كتب عنه (٢)

ولد انطون تشيخوف في ١٧ كانون الثاني من عام ١٨٦٠

(١) مجلة « الآداب الفرنسية » تشيخوف بقلم مكسيم غوركي . نقلاً عن كتاب « ثلاثة من الروس » العدد (٥١٩) . (ص ٦) .

(٢) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . الرسالة العاشرة . الصفحة ٢٧ . تعريب جلال فاروق الشريف (دار اليقظة العربية)

(٣) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . الرسالة السابعة والعشرون . ص ٦٧ .

(٤) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . الرسالة الحادية عشرة . ص ٣١

(١) كبار الناثرين الروس . Les grands prosateurs russes للكاتب « سيرج ميكلسن » Serge Michelson . ص (٢١٠)

(٢) حياة تشيخوف . La vie de Tchekchov . ايرين نيميروفسكي I. Némirovsky . Albin Michel

في مدينة « تاغانروغ » في جنوب روسيا الواقعة على شاطىء بحر آزوف المتصل بشبه جزيرة القرم والبحر الاسود ، لاب بقال بسيط «بول» وجد لاب يدعى « ايغور » كان قناً من الاقنان ، وفلاحاً عبداً من العبيد ، شرى نفسه واسرته من سيده بما استطاع ان يدخره من مال ، وام ابنة بائع قماش متجول رقيق الحال .

وكان « انطوان » ثالث ستة من الاولاد ، يكبره اثنان ويصغره ثلاثة ، منهم بنت تدعى مـــاري . وعندما ترعرع قليلاً ادخل في مدرسة « تاغانروغ » الرسمية ، غير ان الاب لم يلبث ان حل به الافلاس بعد عدة سنوات ، فترك ذويه وفر الى موسكو التي سبقه اليها ولداه الاكـــبران ، ثم لم تلبث الاسرة ان لحقت به ولم يبق في «تاغانروغ » منها غير انطوان واخيه الصغير ايفان ، وكان انطون في ذلك الحين في السادسة عشرة من عمره . وفي التاسعة عشرة ، انجز دراسته الثانوية ولحق باهله في موسكو ، وكانوا يعيشون فيها عيشة فاقة وبؤس ، ودخل جامعة موسكو ليدرس الطب . وشجعه ما حظي به اخوه الاكبر من توفيق في نشر بعض الحكايات في بعض المجلات المصورة ، على الكتابة ، ففعل ونشر لاول مرة في مجلة « الصرصار » عام ١٨٨٠ قصة عنوانها « رسالة من احد ملاكي منطقة الدون الى جاره » تحت اسم منتعار . واستمر يفعل ذلك في مجلات مختلفة يغلب عليها طابع الفكاهة والهزل حتى عام ١٨٨٢ عندما انتقل الى الكتابة في صحيفة « الشرر » فبدأ اسمه في الانتشار ، وصيته في الذيوع .

تقول « ايرين نيميروفسكي » متحدثة عن تلك الفترة من تاريخ روسيا : « لقد كانت روسيا في فترة عام ١٨٦٠ تتمنى باكثريتها العظمى الغاء الرق ، وترغب في حدوث اصلاحات اجتماعية ، وتأمل في مستقبل افضل . كان الناس جميعاً يعتقدون ان استرقاق الفلاح هو مصدر جميع الاسواء . وهم لكثرة ما اشفقوا عليه ، انتهى بهم الحال الى ان جعلوا من الفلاح الروسي مثلاً اعلى ونموذجاً يحتذى . وكانت « الانتيلجنزيا » تريد بكـــل قواها ان تكتشف في « ايفان » و « ديمتري » الحافيين وذوي اللحية القذرة ، نبياً او قديساً ، بدلا من ان ترى في كل منهما رجلاً عادياً ، ليس افضل من الآخرين ولا اسوأ منهم . اخيراً الغي الرق ، فبدا الفلاح جلفاً جاهلاً ، ليس يقل عن سادته قدرة على القسوة والخسة . لقد ظل يائساً كالسابق على الرغم من تحريره . اما الاشراف فقد اشرفوا عـــلى الخراب . والمجالس القروية لم تعد تمارس عملها إلا بمشقة . وفساد الموظفـــين – وهو المرض القديم ، مرض روسيا الخالد – ظل كما هو منذ عهـــد « غوغول » وبدت الرجعية اثر محاولة اغتيال القيصر عام ١٨٨١ قادرة على ان تفعل كل شيء ، معيدة الى الاذهان في كل لحظة ، اسوأ ايام ســـكم « نيقولا الاول » فالرقابة الخمقاء على النشر ، والاعمال الوحشيـــة ، والثوريون والحكام المتنافسون في قسوة الهجوم والقمع ، كل هذا كان يؤلف تقريباً ، صورة للمجتمع الروسي في السنوات الواقعة بين ١٨٨٠ – ١٨٩٠ ، اما الناس فلم يعودوا يشعرون الا بثبوط العزيمة واللامبالاة . الى اي شيء ادت تلك الاحلام النبيلة الكريمة ، وتلك القرابين من الارواح ؟ لقد اصاب الناس اشمئزاز من السياسة ومن الاصلاحات الاجتماعية وبقي العمال وحدهم هم الذين يتحركون ، لكن بعيداً عن « الانتيليجنزيا » . اما هذه التي اصابتها خيبة امل في الفلاح ، فكانت تجهل العامل ، ومن المحتمل ان تجزع منه لو عرفته. كم وكم يبدو مؤثراً في النفس لنا نحن الذين نعرف ما كانت تخبئه مقبلات السنين بعد مدة ، ذلك الاسى والخدر اللذان كانت الطبقة الممتازة غارقـــة فيهما ، في حين كانت تنتظرها ارهب النهايات !

كان الناس في ذلك الحين يبحثون عن سبب يعيشون من اجله .فلنعرض هنا عن الكلام عن الماركسية التي كانت تلقى تحبيذاً قوياً جداً من الشبيبة ، فثمراتها لم تظهر الا متأخرة . في فترة عام ١٨٨٠ ، كانت تتجاذب الفكر الروسي ثلاثة اتجاهات :

اولاً ، الاستسلام وممارسة الفضائل الصغيرة (وكانوا يقولون : لاتطلب المحال . ما فائدة الاصلاحات الخارقة ؟ فليبذل كل امرىء قصارى جهده في عمله في الدائرة المتواضعة التي هو فيها . اطعم الجائـــع ، شيد مدرسة ، او مستشفى ، كن امياً ، غفوراً ، فهذا يكفي .)

ثم المذهب الفردي المتطرف (نظرية الفن للفن) .

واخيراً ، السعي نحو التكامل الذاتي الذي نشره تولستوي بين الناس .

غير ان اياً من هذه الاتجاهات الثلاثة لم يكن مع الاسف ليرضي الرضا كله « الانسان ذا الارادة الطيبة » فقد كانت روسيا اكبر واتعس من ان لا تخيب « الفضائل الصغيرة » . ما جدوى بناء مدرسة ، بل عشر مدارس بل مئة ، بالنسبة للايين الاميين ؟ ما جدوى اطعام سكان قريـــة ، بل سكان مدينة ، في حين تموت بقية روسيا كلها من الجوع ؟ كيف يظل الانسان امياً في بلاد كل من فيها يسرق ، من اصغر الناس الى اكبرهم ، ولم يظل كذلك ؟ وليست النزعة الفردية ، اذا ما امعنا النظر فيها ، بافضل من تلك: فالمرء لا يمكنه ان يتناسى آلام مـــلايين الابرياء ، إلا اذا كان وحشاً لا قلب له . ماذا تبقى اذن ؟ اصلاح النفس ، والبحث عن الحقيقـــة ، وفق مذهب تولستوي : ان لهذه النظرية تأثيراً كبيراً على النفوس ، غير انها بدورها ايضاً ، لا تجلب السعادة . لقد كان رجال فـــترة ١٨٨٠ حزينين قلقين ، افترسهم الاسف والاوهام والندم الغامض والتوجس الغريب ... كانوا ينتظرون الكاتب الذي يتحدث عن تفاهة العيش هذه ، دون غضب ودون اشمئزاز ، وانما بما تستحقه من اشفاق .

كان للادب في ذلك الحين سيطرة كبيرة على النفوس . فهذا الجمهور العاطل عن العمل ، المثقف ، المرهف ، لم يكن يبحث عن التسلية الطريفة ولا عن اللذة البديعية الصرف ، وانما كان يبحث عن عقيدة . لقد كان الكاتب الروسي معلماً بافضل ما في هذه الكلمة من معنى . والناس لايتوجهون اليه بالسؤال الذي فرضه القارىء الاوربي : « ما نحن ؟ » وانما يسائلونه قائلين : « ما يجب ان نكون ؟ » ويجتهـــد كل كاتب في ان يجيب وفق طريقته الخاصة . لقد صدر منذ قليل كتاب « الاخوة كرامازوف » . وكتب « سالتيكوف – ستشيـــدرين » Salttghov —Stchèdrine قصة « السادة غولوفليف » وكانت تلك مرحلة آخر اقاصيص « تورغينيف » الكاملة الحزينة . وكان تولستوي ملكاً وآلهاً . وبين جميع هؤلاء العظماء الذين تجلهم روسيا باجمعها ، بدأ شاب متواضع في كتابة اقاصيصه الاولى ،

دون ان يفكر إلا في كسب عيشه . » (١) .

على هذا النحو الذي تصفه لنا « ايرين نيميروفسكي » دخل تشيخوف عالم الادب . وفي عام ١٨٨٤ نال شهادة الطب ولم تقبل سنة ١٨٨٧ حتى اصبح شهيراً ، فقد دعاه « سوفورين Souvorine مدير اكبر صحيفة في بطرسبرغ وهي « نوفوي فريميا Novoie Vremia » الى نشر اقاصيصه فيها . وفي آذار من ذلك العام كتب اليه الناقد الروسي الكبير « غريغوروفتش Grigorovitch » رسالة اعجاب بموهبته وتقدير لانتاجه واسدى اليه بعض النصح قائلًا : « احترم الموهبة التي لا ينال الناس نصيباً منها إلا فيما ندر . كف عن كل انتاج سريع . لست ادري وضعك المالي ، فاذا كنت فقيراً ، فآثر ألم الجوع عليه ، كما فعلنا نحن قديماً ، احتفظ بانطباعاتك لكتاب مدروس قد انجزته وكتبته ، ليس بدفعة واحدة ، وانما خلال ساعات الالهام السعيدة . ان مؤلفاً واحداً كتب على هذا النحو ، سيفضل بمئة مرة ، مئات الاقاصيص الجميلة المنثورة في الصحف . ستنال الثمن دفعة واحدة . وستحظى بالتفاتة الناس المترفين ومن ثم سائر جمهرة القراء . » (٢).

وقد رد تشيخوف على هذه الرسالة معترفاً بتسرعه في الكتابة فقال : « لقد عاملت عملي الادبي حتى الآن بمنتهى الاستخفاف والاهمال ولست اعرف قصة واحدة من اقاصيصي صرفت في كتابتها اكثر من يوم واحد . »

بعد هذا اخذ تشيخوف يبذل مزيداً من العناية في اقاصيصه ، واخذ الطابع الجدي يرتسم عليها ، ولم ينصرم عامان حتى كتب مسرحية « ايفانوف » الشهيرة التي قابلها الجمهور بادىء الامر بالاعراض ثم ظفرت بنجاح عظيم ، بعد زمن قليل .

(١) حياة تشيخوف . ايرين نيميروفسكي . (ص ٩٩ – ١٠٣) . الاصل الفرنسي .

(٢) حياة تشيخوف . ايرين نيميروفسكي . (ص ١١٤) .

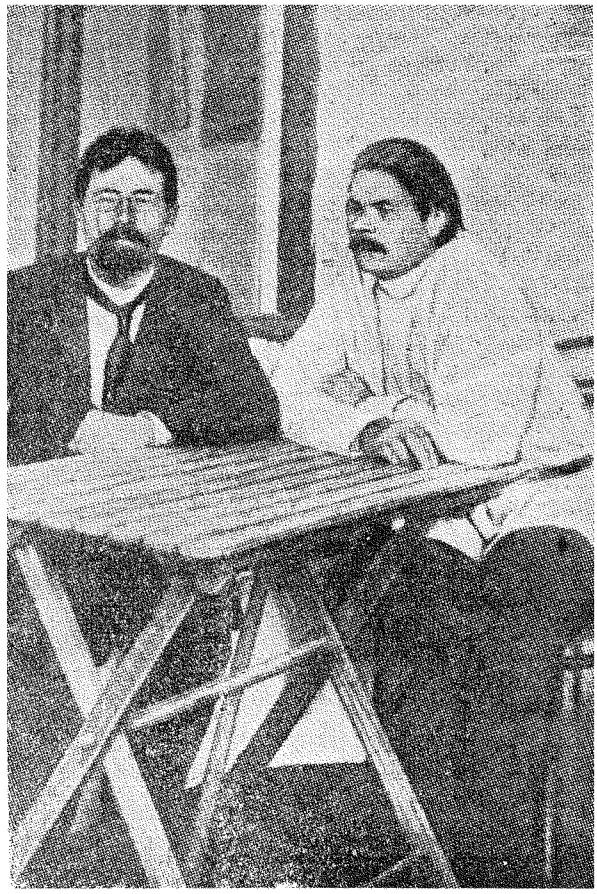

غوركي وتشيخوف

وفي هذه الفترة اي ١٨٨٩ توفي اخوه الاكبر متأثراً بالسل ، وبدأت اعراض النزيف الرئوي تظهر على تشيخوف نفسه . وقام بعد ذلك بعام بزيارة جزيرة « سخالين » في الشرق الاقصى حيث كانت الحكومة القيصرية تودع المجرمين والسجناء السياسيين . وعندما سئل عن اسباب هذه الرحلة اجاب : « اريد ان احيا نصف عام لم اعش مثله حتى الآن . ». وزار الجزيرة ثم عاد بطريق الشرق الاقصى ماراً عبر المحيط الهندي والبحر الاحمر والاسود . امانتيجة هذه الزيارة « فان تشيخوف يمكن ان يقول فيما بينه وبين نفسه عن سفرته ما عاناه من مشاق ، وما قضاه مؤرق الجفن من ليال ، ان هذا كله لم يجد الانسانية البائسة فتيلًا . ان من الصعب على الكاتب ان « يخدم » كما يريد تولستوي . ولقد ادرك تشيخوف هذا بصورة نهائية . فاكتفى بعد ذلك بان يقوم بدور الشاهد » (١) اما من حيث الادب ، فكان من الطبيعي ان يدخل الكثير من حوادث هذه الرحلة في آطار عدة اقاصيص منها « في المنفى » و « غوسييف » وغير ذلك .

وعندما اشتدت عليه وطأة العلة رحل عام ١٨٩١ مع صديقه الناشر «سوفورين» الى اوروبا الغربية فزار فيينا والبندقية وروما ونيس وباريس غير انه لم يلبث ان عاد واشترى مزرعة في قرية « ميليخوفو » في ضواحي موسكو واقام فيها مع اسرته وانصرف الى الانتاج والعمل الدائب الذي لم تعكره غير نوبات النزيف التي تلم به بين الحين والآخر . ومن اشهر ما كتب في هذه الفترة قصة « الراهب الاسود » ومسرحية « الطائر البحري » (النورس) وقصة « الفلاحين » . وهاجمه ذات مرة نزيف رئوي حاد اثناء احدى الحفلات فادخل المستشفى ونصح له الاطباء بالابتعاد عن شتاء روسيا فقصد عام ١٨٩٨ جنوب فرنسا وقضى الشتاء فيه ثم عاد . وتوفي والده

(١) حياة تشيخوف. ايرين نيميروفسكي. (ص ١٦١) الاصل الفرنسي

في هذا العام نفسه ، فانتقل مع اهله الى القرم واقام في يالطا . وانتخب عام ١٩٠٠ عضواً في المجمع العلمي في بطرسبرغ ، وبعد عام تزوج من الممثلة الالمانية الاصل « اولغا كنيبر Olga Knipper » واستقال بعد زواجه بسنة واحدة من المجمع العلمي احتجاجاً على اعتراض القيصر على انتخاب مكسيم غوركي عضواً في المجمع نفسه . وفي عام ١٩٠٤ اشتد عليه المرض اشتداداً كبيراً فسافر الى « بادن » في المانيا للاستشفاء حيث وافته المنية في مطلع تموز من عام ١٩٠٤ . وفي هذه المرحلة الاخيرة من حياته انتج مجموعة من افضل ما كتب منها قصة « في المنحدر » و « نساء » و « الاسقف » ومسرحية « الشقيقات الثلاث » و « بستان الكرز » .

★

يقول مكسيم غوركي : « عندما يقرأ المرء اقاصيص انطون تشيخوف يحس كأنه يحيا نهاراً حزيناً من اواخر الخريف حيث الجو شفاف للغاية حتى لترتسم فيه الاشجار العارية والمنازل الضيقة والرجال الغبر ، وقد اتخذت كلها طابعاً حاداً . فكل شيء منعزل ، ساكن ، نضبت قواه . الابعاد العميقة الزرقاء مقفرة ومختلطة بالسماء الغبراء وترسل على الارض المغطاة بالوحل المتجلد ، برداً كئيباً . وفكر المؤلف ، الشبيه بشمس الخريف ، ينشر نوره الشديد ، على الطرق اللاحبة والازقة المتعرجة والمنازل الضيقة القذرة التي يختنق فيها من الملل والكسل ، مخلوقات مسكينة جديرة بالشفقة ملأت مساكنها بحركة مضطربة ، شبه غافية ، ليس لها معنى . » (١) .

ويقول في موضع آخر مخاطباً تشيخوف : « بصريح العبارة ، اود ان اعرب لك عن المحبة الصريحة التي اخذوها لك في نفسي منذ الطفولة ، وان احدثك عن الحماسة التي تساورني امام عبقريتك التي تثير الاعجاب ، عبقريتك المريرة والاخاذة ، عبقريتك الفاجعة والرقيقة الحاشية معاً ، والتي هي دوماً وابداً ، عظيمة الجمال فائقة النعومة ... كم من لحظات رائعة عشتها في كتبك ، وكم اهرقت فوقها من دموع . كنت اغدو كالذئب المسعور الذي اطبق عليه الفخ ، ثم لا البث ان اضحك طويلاً وقد غمرني الاسى .. اشد على يدك مرة اخرى . ان عبقريتك روح طاهرة مشرقة مشتبكة بروابط الجسد ، مقيدة بالضرورات الخسيسة التي تقتضيها الحياة اليومية ، وهذا مصدر الالم فيها ، فلتسكب الدموع : ان نواحها لن يمنع نداءها الصاعد نحو الله من ان يصل الى الاسماع جلياً . » . (٢)

ويقول في رسالة ثانية مخاطباً تشيخوف ايضاً : « ان المرء ليخونه التعبير الواضح عما تثيره هذه المسرحية (ايفانوف) في اعماق النفس ، انه ليس سوى شعور ، غير انه يخيل الي عندما انظر الى ابطالها على خشبة المسرح كأن ثمة منشاراً مغلولاً يعمل في كياني تقطيعاً . ان اسنانه تنفذ مباشرة الى القلب الذي يتقلص تحت وطأة نهشها له ، ويئن ويتمزق ...

... عندما شرع الطبيب في الفصل الاخير من « فانيا » يتحدث عن حرارة الطقس في افريقيا ، اخذت أهتز وجداً امام عبقريتك ، وذعراً امام الانسانية ، اخذت اهتز امام وجودك البائس الذي لا لون له . انك لتضرب هنا في الصميم ، ولكم تحكم الضرب ! انك تتمتع بموهبة فياضة . لكن قل لي اي مسمار تود ان تغرزه بمثل هذه الضربات ..؟ هل انت بهذا تحيي الانسان ؟ ما نحن في الحقيقة غير اناس يورثون الضجر . اناس مقيتين ، وان على المرء ان يكون غولاً من غيلان الفضيلة حتى يستطيع ان يحب هذا العدم ، وهذه الأحمال من المصران التي تؤلف كياننا ، وحتى يستطيع ان يشفق عليها ويساعدها .. يخيل الي انك تعامل الناس في مسرحيتك ببرود الشيطان . انك كالثلج في لا مبالاتك كالعذاب . اغفر لي ، قد اكون مخطئاً . اني على كل حال ، لا اتحدث اولاً عن انطباعاتي الشخصية ، لكن ألا ترى ان مسرحيتك قد خلفت في نفسي خوفاً وتركت فيها قلقاً ..» (١)

وفي رسالة ثالثة : « اني رجل خيال ، وقد مر علي زمن كنت اتخيلك فيه منتصباً عالياً جداً فوق الحياة . وجهك جامد القسمات كوجه قاض من القضاة ، وفي عينيك ينعكس كل شيء ، الشمس البراقة ونفوس الرجال .. » (٢) .

على هذا النحو صور غوركي الانطباع الذي يحدث في نفس القارىء بعد قراءة اقاصيص تشيخوف . انه شعور بالحزن والكآبة يسيطر على النفس كأن المرء يعيش يوماً من ايام الخريف وحياة بائسة تافهة ، وبشر يتحركون دون جدوى ، على غير وعي ، دون ان يكون لعملهم معنى ، وكاتب جامد القسمات قاسي الاسارير ينظر الى الحياة من عل دون مبالاة ويصورها كما هي ، وقد ساوره اليأس وحل به التشاؤم .

وتؤكد الكاتبة الانكليزية كاترين منسفيلد Cathérine Manzfield التي تعتبر الوريث الروحي لانطون تشيخوف والتي لايمكن الكلام عنه دون الرجوع اليها ، هذا التشاؤم عنده فتقول : « ... اذا ما قرأ الانسان تشيخوف بنوع من الحدس يجد ان رسائله الاخيرة رهيبة . ماذا بقي منه ... لم يبق سوى البؤس . اقرأوا رسالته الاخيرة ، لقد تلاشى كل امل بالنسبة اليه . » (٣)

اما « سيرج ميشلن » فيذهب الى القول : « انه من الكائنات التي يلاحقها القدر بقسوة شديدة بعد ان يكون قد اسبغ عليها اندر المواهب . ان تشيخوف واحد من تلك المخلوقات التي كتب عليها بصورة من الصور ان تحيا في البؤس . » (٤) . ويقول في موضع آخر : « كان تشيخوف يتساءل بقلق : ما العمل ؟ الفرار من تفاهة الحياة التي تثير الاشمئزاز ، لكن كيف السبيل الى ذلك ؟ لكم اخفقت محاولات وخابت احلام

(١) مجلة « الآداب الفرنسية » . تشيخوف بقلم مكسيم غوركي . نقلاً عن « ثلاثة من الروس » . (العدد ٥١٩) . (ص ٦) .
(٢) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . (الرسالة ١)
(١) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . (الرسالة ٣) .
(٢) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . (الرسالة ٨)
(٣) « كاترين منسفيلد » . « رسائل Lettres » .
(٤) « كبار الناثرين الروس » « منشورات La jeune parque » (ص ٢٠٩) النص الفرنسي .

الكفاح ؟ باسم اي مثل اعلى يجب ان يقوم ، وباسم اي مبدأ .» (١) . » ... ان فلسفة اليأس هي في جوهرهـــا الفلسفة التي يعلمنا اياها تشيخوف ، وهو لا يكف الا اذا ساق ابطاله الى حتفهم ، انه يسممهم بالتدريج وليس ينقذهم نواحهم وثوراتهم ، انه يطأ الارض نفسها دون كلل ، والآفاق نفسها تظل تنفتح دوماً امام عينيه . » (٢)

ويطلق الكاتب الروسي « ليون شيستوف » عليه اسم « شاعر اليأس » : « ان جميع شخصيات تشيخوف تخشى النور ، انهم جميعاً في عزلة . وهم في خجل من يأسهم ، ويعلمون ان الآخرين لا يستطيعون ان يمدوا اليهم يد المساعدة » ..(٣)

ويؤكد المفكر الفرنسي « غابرييل مارسيل Gabriel Marcel » هذه العزلة التي يعيش فيها ابطال تشيخوف عندما يتحدث عن تمثيل مسرحية « طير النورس البحري » في باريس بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة تشيخوف فيقول : « ان من الصعب بل من المستحيل سرد « طير النورس » . غير ان شيئاً واحداً اثر في نفسي عندما شاهدتها من جديد : لقد تبين بصورة واضحة جداً أن تشيخوف قد عرض علينا بصورة قد تكون شبه واعية عدة صور عن وضع الكاتب والشاعر وعن المشكلات الانسانية المطروحة التي ليس لها حل ... والامر المدهش الذي لا يمكن ان يقلد في اثر فني لمسرحية الطائر البحري ، هو الطريقة التي وضعت فيها شخصياتها جنباً الى جنب دون ان يكون هناك اي ترتيب . انهم مجتمعون ، غير ان كل واحد مع ذلك ، يظل محافظاً على عزلته ، وله نغمه الخاص . والى هذا ترجع دون ريب ، تلك الروح الشعرية القوية التي يحس بها المرء ، والتي تنبعث من اثر فني كهذا ، تلك الروح الشعرية التي لا تكمن ابداً في الكلمات نفسها وانما حول الكلمات .. » (٤) .

وجميع شخصيات ادب تشيخوف يشبهون طير النورس . فلا يدري المرء من اين انبثقوا فجأة امام عينيه ، ثم لا يلبثون ان يأخذوا في الحوار والحديث الذي ليس يجدي ، ويقدمون على افعال واعمال لا غناء فيها ، ثم تخفق اجنحتهم في يـــأس ويتوارون بغتة عن الانظار كأن الارض قد خسفت تحت اقدامهم او كأنهم سقطوا في شرك الصياد .

ترى من اي شيء يخاف ابطال تشيخوف ، ومن اي شيء يرتعدون فرقاً ؟ انهم يخشون العزلة ويخافون منها اشد الخوف ، فهم يشعرون انهم محاطون بسور متـــين لا يعرفون السبيل الى اختراقـــه .. اما العمل والحب والدين واسمى الفضائل وانبل الافكار ، فليس لها في انفسهم غير صدى يـــتردد من بعيد . لقد انفصلوا عن الحياة فاذا بها تتجلى لهم فجأة ضرباً من العبث Absurde .

« ان اقاصيص تشيخوف حزينـــة . وهو ليس يزعم انه متشائم ، لان بعض اشخاص اقاصيصه يقولون : « ان الحياة ستكون افضل مما هي عليه الآن بعد مئتين او ثلاثمئة سنة » . غير ان المرء لا يستطيـــع ان يقرأ تشيخوف طويلاً دون ان يشعر بالانقباض في قلبه . ان موباسان متشائم والطبيعيون يرون الحياة سوداء ، غير ان في هذا المفهوم عن الوجود شيئاً من الطفولة اذا ما قورن بمفهوم تشيخوف . ان ابطال موباسان يتألمون لانهم فقراء او مسنون او مرضى . فاسباب يأسهم خارجية كلها . اما مصدر الألم عند تشيخوف فهو ان الحياة في نظره ليس لها اي معنى .

ثمة امرأة احبته وسألته :

— ما معنى الحياة ؟

فاجاب باعياء :

— تسألينني عن معنى الحياة ؟ انك في هذا كما لو كنت تسألين : ما هو « الجزر carotte » ؟ « الجزر » هو « الجزر » ولا شيء غير ذلك .

ويقول « تاوسنباخ » الامر نفسه في مسرحية « الشقيقات الثلاث » :

— « ستظل الحياة كما هي حتى بعد مليون سنة . لن تتغير . ستظل ثابتة وستسير وفق قوانينها الخاصة التي ليس علينا الا اتباعها ، او على الاقل التي لن نعرفها ابداً . ان الطيور تطير وتطير ، ومهما كانت الافكار التي تدور في رأسها عظيمة او حقيرة ، فانها تتابع طيرانها وتجهل لماذا تطير والى اين تطير . انها تطير وستظل تفعل ذلك مهما كان نوع الفلاسفة الذين هم بينها ولتفلسف اذا شاءت ، ولكن شريطة ألا تكف عن الطيران ،

— « ما شا » : لكن هل لهذا معنى ؟

— معنى ... ها هو الثلج يتساقط ، اي معنى فيه ؟ » (١)

يقول تشيخوف في « قصة رجل مجهول » : « فرغ من الكتابة ونهض . لا يزال امامي متسع من الوقت . سأثير نفسي ، واشد على قبضتي يديّ ، مجتهداً في ان اجعـــل قلبي يبض ولو بقطرة واحدة من حقدي السابق . سأذكر نفسي اي عدو لدود عنيد كنت قبلاً ... غير ان من الصعب ايقاد عود ثقاب بفركه على حجر واه ... ما انا الآن ؟ باي شيء افكر ، وماذا افعل ؟ الى اين اذهب ؟ ... لماذا احيا ؟ » . (٢)

ويتفق كما — يقول البـــير كامو A . Camus في « اسطورة سيزيف Le mythe de Sysiphe » — ان ينهار « الديكور » ...

(١) « كبار الناثرين الروس » (ص ٢١٠) .
(٢) « كبار الناثرين الروس » « منثورات (ص ٢٩٤)
(٣) ليون شيستوف . صفحات مختارة .. (ص ٧٧) النص الفرنسي .
(٤) مجلة « الانباء الادبية » Les nouvelles Littéraires . « طير النورس البحري » Gabriel Marcel (ص ١٠) (العدد ١٤٠٠) .

(١) حياة تشيخوف . ايرين نيمـــيروفسكي . (ص ١٧٤) .
(٢) قصة رجل مجهول . (ص ٧١) . النص الفرنسي .

فاذا بكلمة « ماذا » تنبثق ذات يوم ، وكل شيء « يبدأ » في هذا الاعياء المصطبغ بالدهشة . « يبدأ » له هذا اهميته . فالاعياء كامن في نهاية جميع الافعال في الحياة الآلية ، غير انه في الوقت نفسه يفتتح حركة الوعي ، انه يوقظه ويثير ما يليه . اما ما يلي فهو العودة اللاواعية الى القيود او اليقظة النهائية . » (١) . غير ان المرء لا يثور على القوانين التي تسير عالم الابدية كلها ، دون ان يلقى عقابه ، فالعودة الى القيود امر محتوم . ان « لا يفسكي » بطل قصة « المبارزة » يقول : « علي ان ادرك اخيراً ان الاستمرار في حياة كحياتي جبن وقسوة ، كل ما تبقى ضعة وعدم . ثم يهمس : الذهاب ، الفرار . » (٢) . غير انه لا يذهب ، بل يستسلم الى حياة تبعث الملال في النفس قرب امرأة لم يعد يضمر لها اي حب . فلا بد اذن من ان يغوص « لايفسكي » باستمرار في حمأة الانهيار الذي صار اليه فالحركة الرتيبة (Routine) لا تزال خير علاج .

« لقد انكشف امام عيني تشيخوف العبث الذي هو اس الحياة » . (٣) . غير ان الغوص في ذلك اليقين الذي لا قرار له ، والشعور الذي يساور المرء بانه غريب عن حياته نفسها كي يعمل على تنميتها وسبر غورها ، كل هذا ليس سوى نوع من التحرر ، اذ ليس ثمة ريب في ان ثورة الانسان هذه على العدم لا تخلو من نبل ، غير انها لا تكفي لطلب الحرية ، لان عليه ان يحيا ويستمر في الحياة . بل ان هناك ضرباً من « صوفية العبث Mystique de l'absurde » التي هي شيء اكثر من مجرد الخضوع ، انها تتطلب انصياعاً بكل مجامع النفس ، لا ينثني يتجدد باستمرار ، وهذا ما فعله تشيخوف . غير انه لم يرغب في ان يذهب بالمقدمات الى نتائجها المنطقية لانه يمقت ان يجعل من آرائه الخاصة قواعد عامة للحياة ، لهذا اكتفى بالقيام بدور الشاهد . كما انه لم يرغب في الاستسلام فظل يناضل ليظفر بحريته الداخلية ، وليفر من الآفاق الحزينة التي تفتحها العزلة امام عينيه دائماً ، فاقبل على العمل بجد ودأب ، واخذ نفسه بالشدة والصرامة . وهو يعلم حقيقة مأساة الانسان .

« ليس ثمة انسان — كما يقول غوركي متحدثاً عن تشيخوف — فهم بمزيد من الوضوح والدقة مأساة بعض الجنبات الصغيرة من الوجود ، مثله . ليس ثمة انسان استطاع قبله ، ان يدل الناس ، باخلاص للحقيقة لا اثر فيه للشفقة ، على صورة حياتهم المملة التي تكرّ في تلك الفوضى القاتمة من الثقافة الرخيصة . » (١) . لقد كان تشيخوف مخلصاً للحقيقة اذن عندما صورها غير ان تلك الحقيقة التي قدمها لنا تشيخوف فاجعة في جوهرها . واذا ما كان العالم حقاً ، كما صوره لنا تشيخوف ، عالماً مبتذلاً لا لون له ، خالياً من السمو ، فلنقل السلام على انسانيتنا .

ومن هذه الحقيقة القاسية يحاول البعض النفاذ الى تشيخوف وتفسيره تفسيراً خاصاً ، وجعله كاتباً مثالياً ، كتب ما كتب لاصلاح المجتمع ، مستشهدين على ذلك برحلته الى جزيرة « سخالين » وعمله على مكافحة المجاعة في منطقة « نوفغورود » وغير ذلك ، والدليل الكبير الذي يقدمونه على ثورة تشيخوف على المصير الانساني كما صوره هو قصة « الحجرة رقم ٦ » التي تصور احد المستشفيات القذرة في الريف ، يديره ممرض سكير متوحش ، وطبيب غير مبال ، ترك الامور تجري كما هي ، مؤكداً للمرضى ان كمية البؤس لن تتغير اذا ما كان المرء فقيراً او غنياً ، جائعاً او متخوماً ، مريضاً او سليماً ، حراً او سجيناً . ويفسرون هذه القصة بان (الحجرة رقم ٦) هي الامبراطورية الروسية ، وان المرض هو القيصر ، والطبيب هو الطبقة المثقفة (الانتيلجينزيا) . ويذهبون ابعد من ذلك حتى انهم ليقولون انه لو طال به العمر لكان ماركسياً (٢) . والى هذا يعزون فخر الاتحاد السوفياتي به .

غير انه لا بد من التمحيص والتدقيق الشديدين قبل اطلاق الاحكام . وقصة تفسر ، لا يمكن ان تنهض دليلاً يخالف اتجاهاً باكمله . ولئن كان تشيخوف قد صور بؤس الحياة في روسيا ، فما ذلك لكي ينفذ من وراء ذلك الى غاية اعظم ، ولئن راعته تفاهة المصير الانساني فيها ، فما ذلك الا لانه اراد ان يغوص في الواقع القومي لينفذ منه الى المصير الانساني كله ، هذا المصير الذي رآه تشيخوف يدور في حلقة مفرغة ، ويكر في حياة تافهة رتيبة لا معنى لها وليست لها اية غاية ، فاخلص تشيخوف معاً للحقيقة الروسية والحقيقة الانسانية كما رآها ولمسها من خلال مأساة حياته .

دمشق — **جلال فاروق الشريف**

(١) اسطورة سيزيف . (ص ٢٧) الاصل الفرنسي .
(٢) المبارزة . (ص ٢١) النص الفرنسي .
(٣) « كبار الناثرين الروس » (ص ٢١٩) الاصل الفرنسي .

(١) مجلة « الآداب الفرنسية » (العدد ٥١٩) (ص ٦) .
(١) حياة تشيخوف . ايرين نيميروفسكي . الاصل الفرنسي ص (١٨٣) .